صمود اللغة العربية عبر العصور ومرونتها في التطور

د. عمر شابسيغ*

بسم الله الرحمن الرحيم

والسلام عليكم ورحمة الله

سيدي الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية – الأستاذ الدكتور محمود السيد نائب رئيس المجمع – الزملاء المجمعيون – سيداتي آنساتي سادتي

رغبت في المشاركة في احتفال يوم اللغة العربية بهذه الكلمة حول بعض نواحي جمال اللغة العربية ولكن لم تتحقق رغبتي تلك في وقتها. وما أريد إظهاره في النهاية في هذه الكلمة هو عدم صحة ما يدعيه البعض بأن اللغة العربية ذات مستويات مختلفة وأقصد هنا باللغة العربية: الفصحى أو الفصيحة وأريد إظهار قدرة اللغة العربية على مواكبة كل التطورات العلمية المتتابعة

(*) محاضرة ألقيت في قاعة المحاضرات في مجمع اللغة العربية بتاريخ ١٢ رمضان ١٤٣١هـ – الموافق ٢١ آب – ٢٠١٠م.

ولكن التقصير هو فينا فنحن نتكاسل.

من المدهش أن تجد لغة تستطيع قراءة شعرها ونثرها الذي كتب منذ قرون. فاللغات الأوربية المعاصرة دون استثناء لايستطيع القارىء المعاصر أن يفهم أي شيء كُتب بها قبل بضع مئات من السنين فقط. فكتابات شكسبير مثلاً بحاجةٍ إلى إنسانٍ ضليعٍ باللغة الانكليزية التي كانت سائدةً في عصر شكسبير كي يستطيع فهمها. وقس على ذلك لغات أوربا الأخرى.

قد يقول قائل ولكن اللغة اليونانية صامدة والجواب على ذلك أن اللغة اليونانية القديمة أيام عصر الازدهار الهلنستي في الألف الأول قبل الميلاد هي غير اللغة اليونانية المعاصرة التي يتكلم بها اليونانيون الآن وتوجد بينهما اختلافاتٌ كبيرة.

نأتي الآن إلى اللغة العربية وأول ما يبهرنا فيها أن القرآن الكريم الذي أُنزل منذ أكثر من (١٤٠٠) عام لاتزال لغته مفهومةً ولاتزال لغته هي لغة العرب بعد كل هذا الزمان. وقد يقول قائل إنَّ السبب في ذلك قدسية النص القرآني، الذي لم يتغير والجواب هذا صحيح فالقرآن هو الذي حافظ على اللغة العربية عبر القرون.

في هذه العجالة سننظر في نماذج من النصوص العربية منذ بدأ تدوينها قبل الإسلام وحتى الآن مع مقارنةٍ بينها.

لا أريد هنا أن أدخل في الشرح الأدبي والتحليل اللغوي لأيٍّ من النصوص التي سأوردها فهذا ليس من اختصاصي، وليته كان، وأترك ذلك للغويين الأجلاء. إنما أنا رجل من هذه الأمة يستمتع بلساننا العربي وبجماله ويا له من لسان مبين.

إنَّ أقدم المدونات العربية كانت شعرًا وهذا هو الأمر الرائج عند أغلب الشعوب. فالشعر سهل الحفظ في الذاكرة بسبب سلاسته وجماله وسبكه حتى يأتي اليوم الذي يُدوَّن فيه.

ولهذا السبب سأبدأ بإيراد أمثلة من الشعر الجاهلي ومن ثم الشعر في العصر العباسي إلى أن نصل إلى شعر القرن التاسع عشر والقرن العشرين الميلادي. وغرضي من عرْض هذه النماذج هو إظهار الصمود اللغوي للغة العربية إذ يستطيع ابن اليوم أن يفهم شعر ما قبل (١٥٠٠) عام دون العودة إلى معجم . كما أنه سيظهر لنا من الأمثلة الآتية تطور اللغة لتتماشى مع الحداثة والتعابير العصرية لكل عصر.

نبدأ من شعر زهير بن أبي سلمى، وإن لم يكن من عصر الجاهلية القديم ولنسمع ما يقوله في جزء من معلقته:

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومنْ يَعِشْ ثمانينَ حولاً لا أبالكَ يسأمِ
رأيتُ المنايا خبطَ عشواءَ منْ تصُب تُمْتْه ومن تُخطِىء يُعمَّرْ فيهرمِ
وأعلمُ ما في اليومِ والأمسِ قبلَه ولكنني عن علمِ مافي غدٍ عمِي
ومنْ لا يُصانِع في أمورٍ كثيرةٍ ومن يضرَّسْ بأنيابٍ ويوطَأ بمنسمِ
يكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضله على قومِه يُستغنَ عنهُ ويُذممِ

من يقرأ هذا الشعر اليوم وبعد مايقرب من القرون الخمسة عشرة يجده شعرًا جزلاً جميلاً مفهومًا لا يختلف عن أشعار أيامنا هذه فهل في أية لغة من لغات العالم شعرٌ صامدٌ يُقرأ اليوم كما كان يقرأ حينئذ.

وأنا لا أنكر استخدامه في أبياتٍ أخرى من هذه القصيدة لبعض الألفاظ التي تدلُّ على أشخاصٍ من ذلك الزمان لانعرفهم أو أماكن غير معروفة لدينا الآن، ولكن ذلك لايبدل من أمر استمرارية اللغة عبر القرون مفرداتٍ وصياغةً ونحوًا.

ثم نمر في العصر الأموي ونقرأ من شعر جميل بن عبد الله العذري القضاعي (جميل بثينة) المتوفى عام ٨٢ للهجرة:

ارحميني فقد بليت فحسبي بعض ذا الداءِ يا بثينة حسبي
لامَنِي فيكِ يا بثينةُ صحبي زعم لا تلوموا قد أقرحَ الحبُّ قلبي
الناس أن دائي طبي أنت والله يا بثينة طبي

هل هناك أحد من الحاضرين استثقل شيئا في هذا الشعر الجميل الذي يدق على أوتار القلوب التي كواها داء الحب؟

وننطلق أماما مايقارب القرون الثلاثة لنجد أبا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان (٣٢٠-٣٥٧) هـ المعروف بأبي فراس الحمداني يقول في شعرله :

يـــا ليـــلُ مـــا أغفـــلَ عـــما بي حبـــائبي فيـــك وأحبـــابي
يـا ليـلُ نـام النـاسُ عـن موجَـع نـــاءٍ عـــلى مـــضجعِه نـــابي
هبَّـــتْ لـــه ريـــحٌ شـــاميةٌ متَـــت إلى القلـــب بأســـباب
أدَت رســـالاتِ حبيـــبٍ لنـــا فهمتهـــا مـــن بـــينِ أصـــحابي

فنرى لغة لا تختلف عن لغة أيامنا هذه بعد مضي أكثر من ألف سنة معبِّرة عن رِّقة المشاعر لهذا الشاعر الفارس مرهف الحس.

ونأتي إلى المعري حكيم دهره والعالم الكبير الذي هو أبو العلاء أحمد ابن عبد الله بن سليمان المعري (٣٦٣-٤٤٩) هـ ولنستمع إلى قوله :

لا يعجـــبَنَّ الفتـــى بفـــضلٍ فإنَّـــه مقتـــضى بوعـــدِ
يقـــول جـــاوزتُ في المعـــالي آلَ ســـــعيدٍ وآل ســـــعدِ
فلـــيسَ فـــوقي ولـــيسَ مـــثلِي ولـــيسَ قـــبلي ولـــيس بعـــدِي
والـــدهُ خـــصَّه بعـــدوى مـــن موتِـــه والحـــمام يعـــدي
أودَى بفرســـان كـــلِّ جيـــلٍ مـــن سَـــبْط فـــيهم وجَعْـــدِ

.....

فالحمـــد لله قـــل خـــيري وصـــار قـــربي نظـــير بعـــدي

وقـــد بـــدا لي مِـــنَ المنايـــا بارقـــةٌ آذنـــت برعـــد

ألا نرى هنا استمرار العربية في وضوحها العصري وهي تمرُّ عبر القرون دون أن تفقد قوتها وفصاحتها وصمودها البنيوي وأيضا مفردات وصياغة ونحوا ويفهمها الكل؟

وبعد ما يزيد على القرون الثلاثة نقرأ شعرًا لإبراهيم الطبري العالم المتوفى عام ٧٢٢ للهجرة وهو العصر الذي اعتبره بعضهم عصر الانحطاط اللغوي فنقرأ شعرا ولا أرق:

غرامِـي بـسكانِ العـذيب مقـيم وصـبرِي عـديم والفـؤاد كلـيمُ

وقلبـي مـن طـول البعـاد معـذَّب إنَّ عـذابَ العاشـقين أليـمُ

يجـاذبُني داعِـي الغـرامُ إلـيكمُ ويقعـدُني عـنكم أسًـى وهمـومُ

فلـو أنَّنـي أُعطـي لنفـسِي مرادَهـا لكنْـتُ إلى تلـكَ الوجـوهِ أشـيمُ

يـشاهدُكم قلبـي عـلى البعـدِ دائـمًا ويهـوى دُنُـوًا والـدُّنو عظـيمُ

وتمضي الأيام والقرون والعربية صامدةٌ فنراها في شعر محمود سامي باشا البارودي، الفارس الوطني، تتألق وكأنها عروسٌ شابةٌ لم تمرَّ عليها القرون والقرون. ونرى في شعره تطورًا يتلاءم مع حاضره من حيث استخدامُ الألفاظ

بمعانٍ معاصرةٍ مما يدلُّ على مرونة اللغة العربية بجانب صمودها فلننظر.

محمود سامي البارودي ١٨٣٩-١٩٠٤ . يقول في إحدى قصائده :

لـك روحـي فاصـنعْ بهـا ماتـشاءُ ... فهـي منـي لناظرَيْـك فـداءُ

لا تكلْنـي إلى الـصدودِ فحـسْبِي ... لوعـةٌ لا تقلْهـا الأحـشاء

أنـا واللهِ منـذ غِبـتَ عليـلٌ ... لـيسَ لي غـيرُ أن أراكَ دواءُ

كيـف أَرْوِي غليـلَ قلبـي ولم يبـ ... ـقْ لعينَي من بعدِ هجركِ ماءُ

فترفـقْ بمهجـةٍ شـفَّها الوجـ ... ـدُ وعـينٍ أَخْنَـى عليهـا البكـاءُ

أنـا راضٍ بنظـرةٍ منـكَ تُـشْفي ... بَـرْح قلـبٍ هاجَـت بـه الأدواءُ

وفي شوقه للوطن في المنفى يقول :

واطـولَ شـوقي إليـك يـا وطـن ... وإن عرَتنـي بحبِـك المحـن

أنت المُنى والحديثُ إن أقبلْ الصـ ... ـصبحُ وهمِّـي إن رنـقَ الوسـن

وكيـف أنـساكَ بالمغيـبِ ولي ... منـك فـؤادٌ بـالودِّ مـرتهن

لـستُ أبـالي وقـدْ سلمتَ عـلى الـدَّ ... هـر إذا مـا أصـابَني الحـزن

ليـت بريـدَ الحـمامِ يخـبرُني ... عـن أهـلِ ودِّي فـلي بهِـم شـجن

قبل نهاية هذه الزيارة السريعة لشعرنا العربي أُورد أبياتًا جميلة لأمير الشعراء أحمد شوقي:

يـا نـاعمًا رقـدَت جفونُـه ... مـضناك لا تهـدا شـجونه

حمـــل الهـــوى لـــك كلـــه إن لم تُعنْـــهُ فمَـــنْ يعينـــه
عـــد مـــنعما أو لا تعـــد أودعـــت سرك مـــن يـــصونه
بينـــي وبينـــك في الهـــوى ســـببٌ ســـيجمعنا متينـــه
رشـــأ يعـــاب الـــساحرو ن وســـحرهم إلا جفونـــه
الـــروح ملـــك يمينـــه يفديـــه مـــا ملكـــت يمينـــه
مـــا البـــان إلا قـــده لـــو تيمـــت قلبـــا غـــصونه
مـــا العمـــر إلا ليلـــة كـــان الـــصباح لهـــا جبينـــه

وفي نهاية رحلتنا في أشعار العرب منذ الجاهلية إلى اليوم نتوقف قليلاً عند شاعرٍ معاصرٍ كبيرٍ هو عمر أبو ريشة فنرى الشعر الحديث هو نفس الشعر الذي نعرفه قبل (١٥٠٠) عام فلله درُّك أيتها العربية ما أروعك ولنسمع معًا قصيدته في المهرجان الألفي لأبي العلاء:

ملعـبَ الـدَّهر لـو مَلكْنـا هـدانا لبلغْنَـــا مِـــنَ الحيـــاة مُنانـــا
ســبقَتْنا إليــكَ أجنحــةُ الــشَّوقِ وشـــقَّت لنـــا ســـبيلَ خُطانـــا
وتلقيْتَنـــا ببـــسمة إشـــفاقٍ وطوقتَنـــــا رضىً وحنانـــــا
ودَرَجْنـا مـع الـشُّروق نُغنِّـيكَ ونـــسقي ســـمعَ الـــدُّنى ألحانـــا
وحنـينُ المجهـول أَخْيلـةٌ تَنبـتُ مِـــنْ كـــلِّ صـــخرةٍ ريحانـــا
أيُّ زادٍ ســـوى الظنـــون حملْنـــا وتركْنـــا إلى هواهـــا العنانـــا

وهكذا رأينا صمود لغتنا ألفاظًا وصياغةً ونحوًا عبر القرون الطويلة في الشعر مع حصول بعض التغيير في المحتوى بحسب الزمان، وبعض التغيير في التوقف عن استخدام بعض المفردات القليلة، واستخدام مفرداتٍ أقرب إلى زمانها.

نأتي الآن إلى النثر الذي بدأ انتشاره منذ أوائل العصر العباسي وسنبدأ بأخذ أحاديثِ الرسول ﷺ ورسائله، ثم رسائل الخلفاء والولاة لاحقًا كأمثلة عن النثر العربي المبكر.

نورد مثالاً من خطبة الوداع للرسول ﷺ :

" أيها الناس: اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا .

أيها الناس إنَّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقَوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وإنَّكم ستلقَون ربَّكم فيسألكم عن أعمالِكم وقد بلغت. فمن كان عنده أمانةٌ فليؤدِّها إلى من ائتمنهُ عليها. وإنَّ كلَّ ربا موضوعٌ ولكن لكم رؤوسُ أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون... " إلخ

عند قراءتنا ودراستنا لهذا النص نجد نصًا بليغًا مختصرًا وليست فيه كلمةٌ واحدةٌ لا نفهمها أو صياغة واحدة لاندركها بعد ١٤٢٢ عامًا. هذا كلام إنسان. هذا هو الكلام العادي الذي يتكلم به مع الناس يوميا أي أنَّ هذا هو

كلامٌ عربيٌّ مبينٌ يتكلم به الناس فيما بينهم ونفهمه نحن بعد كلِّ هذه المدة فهمًا كاملاً فماذا جرى لمن أراه يحاول الخوض في العامية وماذا جرى لنا كلنا حتى لانتكلم لغةً مثل هذه اللغة؟

ثم نقرأ في خطبة أبي بكر الصديق وهو يودع جيش أسامة بن زيد:

" أيها الناس: قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لاتخونوا، ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلُّوا ولا تقتلُوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأةً ولا تعقُروا نخلاً ولا تحرِّقوه ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً ولا تذبحوا شاةً أو بقرةً ولا بعيرًا إلا لمأكله. وسوف تمرون بأقوامٍ قد فرَغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم ومافرغوا أنفسهم له ....الخ ".

أترون فصاحة النص العادي الذي نكتب مثله في هذه الأيام في صحافتنا ونسمعه في إعلامنا المسموع والمرئي (عندما لاينزلون بلغة الإعلام إلى الدرك الهابط من العامية).

ننتقل إلى كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه إلى العربية في صدر الدولة العباسية عبد الله بن المقفع ونقرأ منه باب بعثة برزويه إلى بلاد الهند :

(أما بعدُ فإنَّ الله تعالى خلقَ الخلق برحمتِهِ ومَنَّ على عباده بفضله وكرمه ورزقهم ما يقدِرُون به على إصلاح معايشهم في الدنيا، ويُدركون به استنقاذ أرواحهم من العذاب في الآخرة، وأفضلُ مارزقهم الله تعالى ومنَّ به عليهم

العقلُ الذي هو الدَّعامة لجميع الأشياء والذي لايقدر أحد في الدنيا على إصلاح معيشته ولا إحراز نفعٍ ولا دفعِ ضررٍ إلا به).

وفي مكان آخر يقول :

(زعمُوا أنه كان بأرضِ الكَرْخ ناسكٌ عابدٌ مجتهدٌ فنزل به ضيفٌ ذاتَ يومٍ فدعا الناسك لضيفه بتمر ليطرفه به فأكلا منه جميعا ثم قال الضيف : ما أحلى هذا التمر وأطيبه. فليس هو في بلادي التي أسكنها وليته كان فيها،ثم قال: أرى أن تساعدني على أن آخذ منه ما أغرسه في أرضنا فإني لست عارفًا بثمارِ أرضكم هذه ولا بمواضعها. فقال له الناسك : ليس لك في ذلك راحةٌ فإن ذلك يثقُل عليك، ولعلَّ ذلك لايوافق أرضكم مع أنَّ بلادكم كثيرة الأثمار فما حاجتها مع كثرة ثمارها إلى التمر مع وخامته وقلة موافقته للجسد؟ إنه لا يُعدُّ حكيمًا من طلب ما لا يجدُ، وإنك سعيدُ الجَدِّ إذا اقتنعت بالذي تجد وزَهِدتَ فيما لا تجد).

ونرى في ذلك نصا مفهوما سهلاً ممتعًا جميلاً لا تشوبُه شائبة معاصرة فلا أحد يقرأ الصحف ويستمع للإعلام المسموع الفصيح يستطيع أن يقول لم أفهم.

ونأتي إلى مثال آخر من كتاب البخلاء للجاحظ الذي ظهر في أواخر القرن الثاني الهجري . والجاحظ هو أبو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني.

يقول في الكتاب في رسالة سهل بن هارون إلى بني عمه:

(ثم قد تعلمون أنَّا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترنا لأنفسِنا قبلكم وشهرْنا به في الآفاق دونكم. فما كان أحقكم في تقديم حرمتنا بكم، أن ترعَوا حقَّ قصدنا بذلك إليكم وتنبيهنا على ما أغفلنا من واجبِ حقكم فلا العذر المبسوط بلغتم ولا بواجب الحرمة قمتم. ولو كان ذكر العيوب برًا وفضلاً لرأينا أنَّ في أنفسنا عن ذلك شغلاً) .

مع ما نعرفه من حب الجاحظ للصنعة في كتابته كما يظهر من هذا النص فلا يزال النص واضحا ومفهوما لنا بعد اثني عشر قرنا.

ويحضرني نص من حقبة الانحطاط وننظر إلى مقطع من كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) للمؤرخ والأديب يوسف بن تغري بردي المتوفى في عام ١٤٧٠ للميلاد. لهذا العالم العديد من الكتب منها: (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي) – (الدليل الشافي على المنهل الصافي) أكمل بهما الوافي للصفدي – (مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة) – (نزهة الرائي) – (حوادث الدهور في الأيام والشهور) في أربعةِ أجزاءٍ جعله ذيلاً لكتاب (السلوك) للمقريزي – (البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر) وهو تاريخٌ مطوَّلٌ – (حلية الصفات في الأسماء والصناعات) وهو في الأدب.

يقول في أحد مقاطع كتابه:

قال المقوقس: (كيف رضيتم أن يكونَ هذا الأسودُ أفضلَكم وإنما ينبغي أن

يكونَ هو دونكم؟).

قالوا: (كلا إنه وإن كان أسود كما ترى فإنَّه من أفضلنا موضعًا وأفضلِنا سابقةً وعقلاً ورأيًا وليس ينكر السواد فينا).

فقال المقوقس لعُبادة: (تقدَّم يا أسودُ وكلِّمْني برِفقٍ فإنني أهاب سوادَك وإنِ اشتدَّ كلامُك عليَّ ازددتُ لك هيبةً).

فتقدم إليه فقال: (قد سمعتُ مقالتَكَ وإنَّ فيمن خلفْتُ ورائي من أصحابي ألفَ رجلٍ مثلي وأشدَّ سوادا مني وأفظعَ منظرًا ولو رأيتَهم لكنتَ أهيبَ لهم مني وأنا قد وَليت وأدبرَ شبابي وإنني بحمدِ الله ما أهابُ مئةَ رجلٍ من عدوي لو استقبلوني جميعًا، وكذلك أصحابي).

عبادة هو الصحابي عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

ننتقل الآن إلى كتابٍ علميٍّ تمَّت ترجمته إلى العربية في أواخر القرن العشرين:

(استبدلْتُ تدريجيًّا خلال السنوات الأخيرة بأنظمةِ الاتصالات التمثيلية التي تَسْتَخدِم التعديل المطالي أو التعديل الترددي أو التعديلَ الزاوي أنظمةَ اتصالٍ رقمية حديثة، لها العديدُ من المزايا على أنظمة الاتصال التمثيلية مثل: سهولة معالجة الإشارة – وسهولة التنضيد – والحماية من الضجيج).

وفي نص من كتاب طبي يُدرَّس في جامعة دمشق نقرأ:

(تتظاهر الكيسة المغلقة بشكلِ ظلٍّ وحيدٍ مدوَّرٍ أو بيضوي متجانس ومنتظم الحواف على ساحةٍ رئويةٍ سليمةٍ يلتبس تشخيصُهُ مع أورام الرِئة السليمة أو الدرنية ..... إلخ).

وفي كتابٍ تقني آخر نقرأ:

إنَّ الخصائص التي يمكن أن تدخل في أتمتة الاتصال اللاسلكي في الترددات العالية هي:

- النداء الانتقائي selective calling
- مسح عدد من الترددات scanning
- تقييم القناة آنيا (في الوقت الحقيقي real time)
- سبر المسارات آنيا (في الوقت الحقيقي real time)
- تحليل جودة الاتصال
- إقامة الاتصال آليا

اللغة لا تزال هي العربية مع تطورٍ يواكب التطور العلمي الحديث. فهي تستوعب أحدث العلوم وما علينا إلا أن نسرع في ترجمة المصطلحات الجديدة بالسرعة التي تظهر بها قبل أن يفوتنا القطار ويدَّعي من يكره العربية ظلمًا لها وجهلاً بعلم اللغات أنها لا تصلح للعلوم الحديثة.

هذه العجالة في مقارنة الشعر العربي والنثر العربي عبر العصور تدلُّ على

مدى حيوية اللغة العربية. وعلى أولئك الذين يريدون أن يقللوا من شأن العربية (وأقصد بها الفصيحة) وأنْ ينتقلوا إلى العاميات أو إلى تغيير الأبجدية المستخدمة أو استخدام اللغات الأجنبية بدعوى ملاءمة هذه اللغات لتطور العلوم، أن يعلموا أنَّ اللغة العربية لم تكن يومًا ولن تكون عائقًا أمام التقدم العلمي فهي كانت لغة العلم لمئات السنين ويجب أن تعود كذلك وليس العيب في اللغة العربية، بل العيب فينا نحن أهلها وفيما فعلناه بها نحن قبل الأجانب الذين هم ضدها أساسا. إنني لأعجَب عندما أرى دولة صغيرة كاليونان يتمُّ التدريس فيها لكلِّ مراحل التعليم باليونانية ولا تزال تُكتب بالحروف اليونانية مع أنَّ كل أوروبا الأخرى ما عدا صربيا وبلغاريا تستخدم الأحرف اللاتينية. ألم أقل لكم أن العيب فينا نحن أهل اللغة العربية؟

يأتي بعض علماء العربية فيزعمون أن اللغة العربية لغتان: فصحى وفصيحة وأنَّ الأدب القديم من الفصحى وأن الأدب الحديث من الفصيحة.

فبربكم وبعد هذه المقارنة عبر العصور هل كلام رسول الله ﷺ أو شعر زهير ابن أبي سلمى مثلا هما فصحى أم فصيحة؟ كلا إنها لغة عربية واحدة فبالله عليكم لا تقسموها إلى مستويين تحت ضغط أعداء اللغة العربية الذين يريدون هدمها بكافة الوسائل من إدخال العامية لها والقيام بإضاعة الوقت الثمين بدراسات عن العامية بدل تطوير دخول المصطلحات الحديثة إلى اللغة

العربية. أو ليست كلمة أبي بكر الصديق في الجيش متطابقة تماما مع اللغة التي نستخدمها الآن؟؟

وإنني لأعجب مثلاً ممن يؤيد كتابة العربية بأحرف لاتينية ماذا يفعل بكلمة مثل اسم حمزة. فللتاء المربوطة في العربية خاصيةٌ لا توجد مثلها في أي لغة أعرفها (ست لغات) . التاء المربوطة تُلفظ تاء عندما تكون الكلمة في أولّ الجملة أو في سياق الجملة وتُلفظ هاء عند السكون. فهل في لغات العالم مثل ذلك ؟ كيف نكتب هذا الاسم باللاتينية؟ هل نكتبه Hamzat وعندها تنطق التاء المربوطة تاء بشكل دائم أم نكتب Hamzah وعندها نكون قد سكَّنا التاء المربوطة بشكل دائم.

إن من ينبري للحطِّ من إمكانات اللغة العربية لايعرف هذه اللغة وكفى.

كلمتي اليوم تأتي على خلفية دعوة يحاول البعض نشرها للعمل على اللهجات العامية، وهو ما سيؤدي إلى ظهور لغات عربية مختلفة لكل قطر يتم بها التخاطب الإعلامي والرسمي وبذلك تندثر اللغة العربية وأقصد هنا الفصيحة، وتتم الخطوة ما قبل الأخيرة في مخطط سايكس – بيكو – سازونوف الذي في حقيقته لم يكن فقط لتقسيم أراضي الدولة العثمانية، بل لإظهار كياناتٍ صغيرةٍ يتفاخر بها أبناؤها وينسون ارتباطهم بأمتهم وبلغتهم. فالاتجاه إلى العمل على اللهجات العامية هو استمرارٌ لمخططِ سايكس – بيكو – سازونوف

لتفتيت العرب والمسلمين في هذه المنطقة ذات الأهمية السياسية والاقتصادية والسكانية لهم مستقبلاً أي لأعداء الأمة. فأينما تذهب الآن تقابلك في مطارات العواصم العربية لوحاتٌ كبيرةٌ يُكتب عليها اسم الدولة صاحبة المطار ثم كلمة (أولا) وعندما يكتمل ظهور العاميات المحلية كلغات لا سمح الله فإنَّ هذا الشعار يكون قد اكتمل تنفيذه.

ويدعي الداعون إلى النظر في العاميات أن هناك أمورًا لا تستقيم إلا باستخدام العامية وبعض التعابير التي أيضًا لا تستقيم إلا بذلك. إنَّ هذا التفكير نابعٌ عن عدم اكتمال المعرفة اللغوية عند هؤلاء أم هل أقول مقاربة الأسهل الذي تعودنا عليه في بيوتنا وحياتنا؟ أي التكاسل.

لا يجرؤ على التصريح بقصور أية لغة إلا من لا يعرف علم اللغات. إذ لا توجد لغةٌ في العالم لا يستطيع متقنها التعبير بها عما يريد من أمور الحياة سواء كان ذلك في الفنون والآداب أم في العلم.

هذا مبدأٌ يسري على اللغات كافة.

يقولون ويا للأسف، أنَّ الأغاني العامية هي التي تطرب وينسون كل الأغاني الرائعة بالفصيحة التي ترنَّم بها العوام قبل المثقفين مع محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وناظم الغزالي وفيروز وكاظم الساهر وغيرهم كثيرون. ينسون القدود الحلبية والموشحات الأندلسية وكيف يتراقص معها الشباب.

وينسون وينسون وينسون. أم يتناسون؟

يخافون ألاَّ يفهم الأطفال الفصيحة فبدؤوا يذيعون برامج الأطفال ومقدموها يرطنون بالعامية وينسون كم استمتع أطفالنا بالبرامج الفصيحة كبرنامج (افتح يا سمسم) ومسلسل (هذه هي الحياة) و أفلام الصور المتحركة (غراندیزر) وغيرها. وكان الأطفال يقلدون ما يسمعون ويتكلمون معنا بالفصيحة الجميلة. فهل ما يحصل الآن من هجمةٍ ثقافيةٍ على أطفالنا بالذات من قبل هيئاتٍ أجنبيةٍ تُظهر اهتمامها بتربية ورعاية أطفالنا هو جزءٌ من إضاعة لغتنا العربية لدى أطفالنا ونحن مع الأسف نظن أنهم أصدقاء، كما ظن بعضهم في يوم من الأيام أنَّ الرائد لورنس الجاسوس البريطاني ضابط المخابرات كان صديقا للعرب وللمسلمين؟ أم هل هي حملة سايكس- بيكوية - سازونوفية تكميلية حيث التوحد العربي ممنوع دوليًا حتى لو كان توحدًا لغويًا، ونحن يجب أن نستسلم لذلك؟ هل هذا ما تريدون أيها السيدات والسادة؟

ثم يأتون لنا بالمسلسلات وهي تنطق بالعاميات وينسون أنَّ بعض أشهر المسلسلات كانت ناطقةً بالفصيحة ولم يتأفف من ذلك أيُّ من العوام. أم هم يتناسون؟؟؟؟ وأذكر كم خجلت عندما عرض تلفازنا مسلسلا جزائريا باللهجة العامية عندهم ولم أفهم منه شيئا وكأنَّ التلفاز السوري أدرك ذلك عندئذ فوضع كتابةً عربيةً فصيحة على المسلسل ترجمةً للحوار.

ويسمحون لدرس اللغة العربية أن يدرس ويشرح لأطفالنا وطلابنا باستعمال العامية حتى في تدريس اللغة العربية. إنني لا أستطيع هنا إلا أن أستخدم تعبير المرحوم الممثل يوسف وهبي عندما يقول في إحدى مسرحياته: (يا للهول) !

ويسمحون لأساتذة الجامعات عندنا بشرح محاضراتهم بالعامية، وكأن الفصيحة عدوتهم.

ويسمحون للجامعات الخاصة بالتدريس باللغة الإنكليزية، وكأنهم يقولون لنا إن العربية لا تصلح للتدريس العلمي.

إنَّ كلَّ ما يجري الآن على ساحة اللغة العربية من تقويضٍ لها وبهمَّةٍ كبيرةٍ ومن محاولات قطرنة (من قطر) اللغة لتصبح لغةً قطرية من أقطار مستتبعات سايكس – بيكو – سازونوف لن ينجح بإذن الله، إذا وضعنا أيدينا مع بعضنا البعض لنقل المصطلحات الجديدة إلى اللغة العربية قبل أن تصبح المصطلحات الأجنبية دارجة. وهذا هو واجبنا الأول.

والواجب الأهم هو محاربة انتشار العامية في مؤسسات الدولة والإعلام والتعليم بكل مراحله، والعناية باللغة الفصيحة بحيث تكون هي الأساس في التعيين في وظائف الدولة وليست اللغة الأجنبية. فبربكم قولوا لي ماذا تفيد الإنكليزية إن أجادها كاتب في شعبة تجنيد ناحية النشابية التابعة لدوما في ريف

دمشق؟؟ أو لدى موظف تسجيل الوارد في ديوان الشؤون العقارية؟

وما يدعوني للعجب أن هناك بعض المسؤولين عن دعم اللغة العربية الفصيحة وعن محاربة العامية ويعملون عكس ذلك.

وإنني لأدعو من فوق هذا المنبر إلى إغلاق جميع المدارس الخاصة التي تقوم بالتدريس لمواد الدراسة بغير اللغة العربية، كما أدعو إلى مراقبة الجامعات الخاصة في استخدامها للغة العربية فليس هناك عذرٌ لذلك ونحن نعرف أنَّ كل خريجي جامعاتنا الحكومية التي تدرس باللغة العربية ينجحون نجاحًا بالغًا سواء في دراساتهم العليا في الخارج أو عند استقرارهم في بلد أجنبي.

أنا لا أخاف من اندثار اللغة العربية فإنها لغة الذكر الحكيم والله عز وجل يقول في محكم كتابه بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿إنا نحن نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون﴾ صدق الله العظيم. ولكنني أخاف عليها أن تصبح لغةً للدين فقط وليست لغة الأمة.

أيها السيدات والسادة إنني من خلال عملي التدريسي في الجامعة منذ عام ١٩٦٥ وحتى الآن، بدأت أرى حاليًا بوادر يقظةٍ لدى بعض ولا أقول كل الشباب في محاولتهم الارتفاع بفكرهم وذهنيتهم إلى مستويات أعلى مما نراه في المتوسط العام.

سأستعير هنا جملة قالها مارتين لوثر كينغ في خطاب له: (إنني أحلم .....)

ويعني بذلك أنه يرغب وسيعمل لتحقيق رغبته، فأقول لكم وأنا أنظر في عيون الشباب: إنني أحلم بأنَّ هذه الفئات من الشباب العرب ستكون قائدةً لنا جميعًا في استخدام العربية في البيت والشارع والعمل وفي الدفاع عنها وأحلم بازدهار اللغة العربية خلال فترة قصيرةٍ على أيدي من يريد الانتساب إلى هذه الفئة من الشباب الذين أراهم بعين الأمل. أحلم وكلِّي أمل أن أرى العربية الفصيحة هي الأساس في كل أركان الدولة ومؤسساتها، وهي الأساس لدى كلِّ من تعلم القراءة والكتابة وأحلم أن وسائل الإعلام المسموعة والمرئية على امتداد الأمة العربية لم يعد يُسمع منها إلا العربية الفصيحة وأحلم ألا يستلم في هذه الأماكن المسؤولية إلا من لا يعرف عنه تفضيله للعامية. هذه ليست أحلام بل هي ما أريد أن يكون، وما سأسعى لكي يكون، ما دام يخفق في صدري قلب.

أيها السيدات والسادة لنبدأ من أنفسنا وليكن كلامنا كله عربيا مع أطفالنا في بيوتنا، وحتى مع جداتنا فإنهن وإن لم يكنَّ يستطعن التعبير بالفصيحة إلا أنهن يفهمنها. وليكن كلامنا عربيا في أعمالنا وفي الأسواق ولا تخجلوا إن استهزأ أحد وقال : (عم يحكي نحوي) فهو الذي يجب أن يخجل. هذا الأمر يتطلب إرادةً قويةً للتغلب على العادة وأنتم وكل العرب قادرون على ذلك.

أنا لم أقصد في كلمتي هذه النيل من أحد، ولكنها تذكرةٌ لعل وعسى تصل إلى القلوب قبل العقول.

قبل الختام أعود إلى عنوان المحاضرة (صمود اللغة العربية عبر العصور ومرونتها) وأقول بأنني أظهرت لكم في الجزء الأول من المحاضرة صمود اللغة العربية ليس جمودًا وتجمدًا فيها فلو كان ذلك لما صمدت، ولكن الصمود ناتجٌ طبيعي للمرونة في التطور عبر العصور وتوافقٌ للغة مع متطلبات الحضارة في كلِّ عصرٍ لا كما حصل في لغات أوروبية شهيرة.

فلنفخر بلساننا العربي المبين